الفصل الخامس:

الأسرةُ المسلمةُ منبعُ الوجدان

أولاً: أسرار الشريعة في بناء الأسرة: الأسس والمنهج

إذا كانت أهداف التربية الإسلامية السامية هي بناء "المؤمن الصادق"، و"المستخلف الراعي"، و"القوي الأمين". فإن هذه الأهداف لا تأتي إلا بطاقة قناعة الإيمان، وحسّ مسؤولية الاستخلاف، وشجاعة القلب، ونبل الصدق والأمانة، وإحسان الأداء وإتقان العمل. وهذه معالم تُبنى في الطفولة، وتتشكّل في أساس تكوين الإنسان الوجداني، ولذلك كانت الأسرة وسلامة العلاقة الأسرية هي القاعدة الأساس للنهج التربوي النبوي للطفل، وغاية خطابه. ذلك لأنّ الأسرة هي المحضن الأول والأهم للطفل، نفسياً ومادياً، فهو يولد غير قادر على تحصيل حاجاته وحماية نفسه دون عناية أسريّة توفر له الحاجات المادية والنفسية وترعى طفولته، ولذلك كان بناء الأسرة ونوعية علاقاتها من أهم الأبعاد التربوية الإنسانية التي يتوقف عليها نوع بناء الشخصية الإنسانية.

وقد أولى الإسلامُ والقرآنُ الكريم ونبيُّ الإسلام الأسرةَ وعلاقاتها أعظمَ الاهتمام، وعدَّها النواة الأساسية في تكوين الفرد والمجتمع، ولذلك فإنّ من المهم أن نتعرف إلى الرؤية الإسلامية في بناء الأسرة وعلاقات أفرادها؛ حتى يمكن أن نقيم دعائمها على الأسس السليمة التي توفر المحضن التربوي السليم لبناء الطفل المسلم، ونزيل بعض ما لحقها من انحرافات أملتها

التقاليد، وأعانت عليها الظروفُ وغبشُ الرؤية وجمودُ الفكر، خاصة في هذه المرحلة التي تمرّ بها الأمة والتحديات التي تواجهها اليوم.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١]. ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤]. ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان: ١٣ - ١٤]. ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٥]. ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

وقال رسول الله ﷺ: "إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله."[1] وقال رسول الله ﷺ: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم

---

(١) رواه أحمد في مسنده، انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٤٠، ص٢٤٢، حديث رقم: ٢٤٢٠٤.

obeikan.com

لأهلي."[١] وروى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك."[٢] وروى سعيد بن منصور عن رسول الله ﷺ أنّه قال: "إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن في الأرض فتنة وفساد كبير."[٣] وروى أحمد وأبو داوود والنسائي والحاكم أنّ رسول الله ﷺ قال: "تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامـة."[٤] وروى الشيخان عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كلكم راع ومسؤول عن رعيته فالإمام راع ومسؤول عن رعيته والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته." قال فسمعت هؤلاء من النبي ﷺ وأحسب النبي ﷺ قال: "والرجل في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته فكلكم

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه والترمذي في جامعه، انظر:

- القزويني، **سنن ابن ماجه**، مرجع سابق، ج١، ص٦٣٦، حديث رقم: ١٩٧٧.

- الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ج٥، ص٧٠٩، حديث رقم: ٣٨٩٥.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص١٩٥٨، حديث رقم: ٤٨٠٢.

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٢، ص١٠٨٦، حديث رقم: ١٤٦٦.

(٣) رواه سعيد بن منصور في سننه عن ابن هرمز الصنعاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انظر:

- البزاز، سعيد بن منصور. **سنن سعيد بن منصور**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط. ١، ١٩٨٥م، ج١، ص٨٣، حديث رقم: ٥٩٠.

(٤) رواه أبو داود في سننه، انظر:

- السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، ج١، ص٦٢٥، حديث رقم: ٢٠٥٠.

راع وكلكم مسؤول عن رعيته."[1]

هذا الاهتمام بالأسرة في الإسلام، التي هي المحضن الأول والأهم في بناء الإنسان، ليس مستغرباً، لأنّ الإنسان هو أكرم المخلوقات، وهو المستخلف في الأرض، ولذلك كان في حاجةٍ إلىٰ التربية والإعداد، وكانت طفولته النفسية والبدنية طويلة الأمد؛ بل هي أطول طفولة في الكائنات الحية، تستغرق حوالي عقدين من الزمان قبل أن يكتمل عود الطفل الإنساني، ويكتمل بناؤه النفسي والجسدي. وهو خلال هذه الفترة يتلقىٰ مختلف ألوان العناية والرعاية والتربية والتقويم والتوجيه والتعليم والتدريب.

لهذه الأسباب ندرك لماذا أولت الشريعة الإسلامية بناء الأسرة كل هذه الأهمية الكبرىٰ، ولماذا جاء بناءها وهديها وتوجيهها قائماً علىٰ ما تمليه الفطرة وعلاقاتها الإنسانية في الأبوة والأمومة، ولماذا كانت الأسرة الإسلامية مبنية علىٰ الأسس الفطرية في النفس الإنسانية التي تتسم بالثبات، لذلك تناولها التشريع الإسلامي بالتفصيل الذي يقرر الأسس الثابتة لبنائها، ويحدد علاقات أفرادها القائمة علىٰ ثوابت هذا البناء الفطري.

ولهذا فإنّ التشريعات الإسلامية للأسرة لا يمكن فهمها ولا إدراك حكمتها إذا لم تفهم الجوانب الفطرية السننية في تكوينها، والتي تحدد وظيفتها تجاه أعضائها، وطبيعة الأدوار المتكاملة لهم. إنّ إهمالَ جانب الدراسات السننية

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٢، ص٩٠٢، حديث رقم: ٢٤١٩.
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٤٥٩، حديث رقم: ١٨٢٩.

الفطرية في تكوين الأسرة والاستجابة لمتطلباتها؛ هو الذي يفسّر ما تعانيه كثير من التشريعات الإسلامية المعاصرة من قصور في ملاحقة المتغيّرات، وملاحظة مدىٰ تأثيرها في الأسلوب الذي يؤدي به أفراد الأسرة أدوارهم.

وعدم إدراك المبدأ الإسلامي في تكامل أفراد الجنس البشري عامة، وأدوار أعضاء الأسرة بشكل خاص، يؤدي إلىٰ عدم فهم بناء الأسرة المسلمة، وعدم إدراك أدوار كل عضو فيها. لذلك يخطئ مَن يملي التماثل في الأدوار علىٰ أطراف العلاقـة الأسرية؛ لأنّ ذلك منطلق خاطئ من ناحية الحقيقة الفطرية، وتشويه للوظيفة الأسرية، وجور علىٰ حاجات أطراف العلاقة وحقوقهم.

التوافق والتكامل اللذان يحققان التعاون والرعاية والود والرحمة بين الأبوين -ذكراً وأنثىٰ- هما الأساس الذي تبنىٰ عليه الأسرة الإنسانية، وإذا ما انتفت علاقة التكامل والتعاون والود والرحمة بين الأبوين تحطمت أسس علاقة الآباء بالأبناء. ذلك لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولن يحظىٰ الطفل بالسلام والأمن والرعاية والتربية الضرورية لبنائه النفسي والمعرفي القويم إلا إذا حصل كل فرد في الأسرة علىٰ حاجته، وقام بدوره قدر طاقته، ممّا يهيِّئ لأفراد الأسرة ولأطفالها المناخ النفسي السليم للإحساس بالأمن، ولتنمية طاقاتهم وقدراتهم.

إنّ ضعف المرأة الجسدي ورقتها العاطفية، قياساً بالرجل، مع تعلّق الطفل مادياً ونفسياً بها، هو ما يجعلها ويجعل طفلها في حاجة إلىٰ الرعاية والدعم. ويعوّض ذلك ويقابله ضعف الرجل تجاه الجنس، قياساً بالمرأة، لأنّ في تحكمها في رغباتها حماية للمرأة ولنفسها ولطفلها، وبذلك جعل الله بيد

openkan.com

المرأة زمام القرار الجنسي وعقلانيته، فلا يؤثر على قرارها العقلاني في علاقتها بالرجل حضوره أو مظهره، بل تظل قادرة على اتخاذ قرارها وفقاً لإرادتها وما ترى فيه مصلحتها.

ولهذه الحقائق في كيان المرأة والرجل، ولما فيه مصلحتهما، نظَّمت الشريعة علاقة الزواج والنسب على أساس من الخصوصية، وبها يتم انتماء الطفل للرجل، وولاء الرجل للمرأة والطفل. وعلى أساس من هذا التنظيم الحكيم يحمل الرجل -بما وهبه الله من قدرات العمل وتحمُّل المشاق- أعباء تبعات الأنوثة والطفولة، وعلى أساس من هذه الخصوصية وهذا الانتماء وهذا الولاء قامت العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس من الود والرحمة، لتكون الأسرة محضن حبّ وأمن لأبنائهما.

إنّ قوةَ الرجل وجَلَدَهُ وخلوَّه من مشاغل الأمومة الأنثوية؛ هو في رباط الأسرة قوةٌ مُيسّرةٌ لتوفير حاجات المرأة والطفل ورعايتهما. وإنّ في رقة المرأة وعاطفتها راحةً ورحمةً وسكناً للطفل الضعيف والرجل المرهق، ولذلك أُوكلت النفقة إلى الرجل في الأسرة، فلا تعمل المرأة إلا بإرادتها، بحسب حالها وطاقتها والمرحلة التي تمرّ بها وطبيعة العمل المتاح لها، وأيّ جور عليها في ذلك أو غبن لحقوقها هو غبن وظلم لها ولحقها في العون وفي الإحسان.

وهذه الفطرة تفسّر المفهوم الإسلامي في مقدار عورة الرجل وعورة المرأة وحكمته، فهو ليس جوراً على المرأة، ولكنّه رعاية وحماية لطرفي الأسرة، فعورة الرجل المحدودة هي تيسير لعمل الرجل دون خوف على فتنة المرأة أو تفريطها في حقوق الأمومة في الأسرة. أمّا شمول عورة المرأة لمفاتن جسدها

openkan.com

وسترها فإنّه حماية لها من تعديات الرجال وعدوانهم على دور أمومتها، وهي أيضاً حماية للرجل من الفتنة والإضرار بأسرته وبحقوقها عليه.

إنّ هذه الأهداف السامية هي من الغايات المقصودة بالتفاوت بين عورة المرأة وعورة الرجل، فهي تنبع من فطرة كل واحد منهما، وتستجيب لحاجاتهما، ولطبيعة الدور المتعلّق بكلٍّ واحد منهما. ومن ذلك أيضاً حكمة منع التعدّد للمرأة، لأنّه يهدم الأسرة، ويضيع النسب، ويلغي دور الأبوة. فالمرأة لا تحمل إلا مرة واحدة ومن رجل واحد. أمّا الحكمة في السماح بتعدّد الزوجات للرجل؛ فلأنّه لا يلغي النسب ولا يهدم الأسرة، بل يعدّد الأسر. إلا أنّ التعدّد للرجال دون حاجة ليس من دواعي المحبة والوئام والولاء في الأسرة، ويحمل معه مخاطر الغيرة والتباغض بين النساء والأبناء، فلا يكون الرجل -على كل الوجوه- رابحاً نفسياً وأسرياً إلا إذا كان التعدد لحاجة حقيقية تمس حياة الفرد أو كيان الأمة.

وبهذا قامت الأسرة على الود والرحمة، ففي المشاعر تقوم على الود، وفي التكليف تقوم على الرحمة، فلا يكلف الزوج زوجتَه عنتاً بما لا تطيق، ولا تعنت المرأة زوجَها بما لا يطيق، كما لا يحقّ أن يُقْسَرَ أحد من أطراف الزوجية على البقاء فيها دون رغبته وإرادته، ولذلك أباح الإسلام الطلاق للرجل والـخُلْعَ للمرأة إذا ما دبَّ بينهما الشقاق، لأنّ فَقْدَ المودة والرحمة بين الزوجين أضرُّ على نفسيهما وأبنائهما من الفراق. وفَقْدُ الطفل لأحد أبويه في مرحلة أو أخرى من حياته أهون من عيشه بين أبوين هما في صراع وكراهية وقسوة وشقاق.

obeikan.com

ولذلك اهتمَّ الإسلام، وفصَّل القرآن الكريم ووعظ، ووعَّى الزوجين بطبيعة علاقتهما، وبحقوق كل طرف منهما وواجباته، وترك لهما بالود والتراضي والتكافل حرية التصرف في أنفسهما وممتلكاتهما دون حرج، بما لا إثم فيه ولا غش ولا تفريط في الواجبات. كما علّمهما وأرشدهما إلى سبل حل الخلافات وتجاوز العثرات قبل اللجوء إلى الفراق وهدم الأسرة، وإيذاء الأطفال بالطلاق أو بالخلع. وحكمة التراضي -بما لا يزيد على ما قدَّم الزوج للزوجة من المهر لخلع المرأة من الزوج- ألا يكون المالُ سببَ طلبِ المرأة الطلاق أو الخلع، أو أن يكون مَن له تأثير عليها من القرابة سبباً في الفراق وهدم الأسرة، فهي تعيد إلى الزوج ما قدَّم، وعندها لا يكون الفراق سبباً لمغنم. أمّا في حال طلاق الرجل للمرأة فإنّه ليس فيه جائزة مادية له، بل إنّه سيعاقب مادياً بسبب فَقْدِه المهرَ وتحمّل النفقة، فضلاً عمّا سيتحمّله بعد ذلك من التبعات اللاحقة لبناء أسرة جديدة.

إنّ الأسرة في نظام الإسلام الاجتماعي هي المؤسسة الاجتماعية الأساسية التي توفر للإنسان أسباب الوجود الأساسية، وقد أقام الإسلام لها نظاماً خاصاً يناسب مهمتها، وأوكل إلى كل عضو فيها مهمة ومكانة تناسب دوره وحاجته التي تبنى على المودة والمحبة والرحمة والاحترام المتبادل.

دور الفرد بين الأسرة والمجتمع:

إنّ الخلط بين أدوار الأفراد، بصفتهم أعضاء في الأسرة، وبين أدوارهم في المجتمع ومؤسساته الأخرى؛ أدى إلى كثير من سوء الفهم وتنازع الأدوار، وإهدار الطاقات، والتعدي على الحقوق.

فمقام الأب ومكانته ومركزه في الأسرة، ومقام الأم ومكانتها ومركزها في الأسرة، ومقام الابن ومكانته ومركزه في الأسرة، لا علاقة لأيّ منها بمقام أيّ واحد منهم ومركزه في مؤسسات المجتمع الأخرىٰ. فعلاقة الأبوَّة بالبنوَّة في الأسرة تتعلّق بالأبوَّة ومكانتها في النفس، وما لها من الحب والتوقير. أمّا موضع أيّ عضو من أعضاء الأسرة في المجتمع فإنّها هي الأخرىٰ تتعلّق بقدراته وطاقاته التي قد تفوق فيها قدراتُ الابن قدراتِ أبيه أو أمه وطاقاتهما. وكذلك فإنّ مقام الزوجة أو الابنة وقدراتهما وطاقاتهما في مؤسسات المجتمع قياساً بمقام الآخرين، أباً أو أمّاً أو إخوةً أو أخوات، يتعلّق بقدرة كل واحدة منهما وطاقاتها، والخلط في هذا الأمر يؤدي إلىٰ سوء الفهم، وإهدار الطاقات، وتنازع الأدوار، والتعدي علىٰ الحقوق، وزعزعةِ استقرارِ الأسرة، وسلامة أدائها.

إن مكانة الزوج في الأسرة تتعلّق بهوية الأسرة وانتماء أعضائها وتمكين ولائه لها وتوفير مشاعر الأمن والطمأنينة لـه ولبقية أفرادها. فولاء الرجل وانتماؤه للأسرة والزوجة والأبناء يتوقف في جوهره أصلاً علىٰ مدىٰ ولاء الزوجة وإخلاصها للعلاقة مع الرجل، ومدىٰ إعطائـه حسّ الأمن والثقـة في علاقته بها وبأبوَّة أبنائها، وبمدىٰ إعطائه دور التحكم في إدارة العلاقة بالأطراف الأجنبية عن العلاقة الزوجية الأسرية؛ الأمر الذي ينعكس في انتساب الأبناء وولاء الأب لهم، وثقة الأبناء بانتماء الأب إليهم واتحاده بهم.

ومن المهم أيضاً أن ندرك أنّ طبيعة المرأة بشكل عام –وفي جُلِّ أطوار حياتها الإنتاجية– تختلف عن طبيعة الرجل، ولا يغيّر من ذلك بعض

الاستثناءات. فالمرأة تتميّز بأنّها ثنائية الوظيفة والاهتمامات والقدرات، فبقدر ما تكون قادرة ومؤهلة للعمل والإنتاج وتتطلع إلى الإبداع فيه؛ تبقى مشدودة إلى الأمومة ووظائفها ومتطلبات "العش والفراخ".

أمّا الرجل فأحادي الدور والقدرة والاهتمام الذي يتعلّق في الجوهر بالعمل والإنتاج. فهو قد هُيِّئ لذلك جسدياً ونفسياً، ولذلك يجب توفير كل الشروط اللازمة لكي يوظف قدراته للعمل خدمةً للمرأة والطفل وحاجاتهما، ومشاركته لـهما ثمار إنتاجه، وتوفير الوقت والجهد اللازم للأم لكي تُعْنى بالصغار، حتى يبلغوا مرحلة النضج، في بيئة تتوافر فيها العناية والرعاية والتوجيه والتربية السليمة. هذا هو الأصل والمنطلق، وأيّ تعديل في مسار أداء كل منهما يجب أن يتم دون إخلال بالواجبات والمسؤوليات الأساسية لكل واحد منهما.

ولذلك فإنّه لا مجال للتمايز والتعالي والصراع بين أدوار الرجولة والأنوثة، فلكل واحد من الطرفين دور في بناء الأسرة والمجتمع. فالمرأة هي في بناء المجتمع المسلم -بالدرجة الأولى- الأم والأمومة التي هي أساس الأسرة، ومرسى بنائها، وعش أمنها وحنانها، وهي الأَولى بالعون والبر والحماية، وهي كذلك أولى بقوة الرجل وطاقته وعطائه لحماية العش ورعايته والسهر على راحته.

وكل تشريعات الإسلام إنّما تسعى لتحقيق هذا الهدف والمقصد، وأيّ فهم لأدوار الرجل والمرأة في المجتمع المسلم ينافي ذلك هو انحراف عن أهداف الإسلام وعن الفطرة السليمة، سواء أكان ذلك باتجاه الغرب، إرهاقاً

للمرأة وإلزامها بالعمل، والمتاجرة بها جنسياً، وجعلها أداةَ تسليةٍ وعبثٍ فاجرٍ رخيص، أم باتجاه الخضوع للأعراف والتقاليد في بعض بلاد العالم الإسلامي، بإعناتها وإعضالها وسجنها والتضييق عليها وتجهيلها، بدلاً من تعليمها وتثقيفها ومشاركتها العبء وإعدادها للقيام بمهمتها في رعاية الأسرة، وحسن تنشئة أبنائها، وتوفير سبل رعاية الزوج، واستثمار فائض طاقتها في خدمة الأمة والمجتمع.

إنّ إبعاد المرأة المسلمة عن الإسهامات الثقافية والدينية والاجتماعية الإسلامية، هو الذي يفسّر -في كثير من الوجوه- ضعف تربية الأبناء، وضعف دور المرأة المسلمة في المجال الاجتماعي، مقارنةً حتى بالمرأة الهندوكية على سبيل المثال، على الرغم من أنّ المرأة الهندوكية مهضومة الحقوق ولا تتمتع حتى بالقليل من الحقوق التي كفلها الإسلام للمرأة المسلمة، إلا أنّ الفرق هنا أنّ المرأة الهندوكية لها أدوار فعَّالة، ولها حضور في النشاط الديني والاجتماعي الهندوكي. ويُذكر هنا ما سمعته من الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكرياته عن الطفولة والقرية، إذ يذكر كيف كان يرى المرأة في كل مكان في القرية إلا في المسجد.

وكم أعجب حين أرى جُلَّ مساجد المسلمين في كثير من بلادهم لا موضع فيها للنساء، وإن وُجِدَ مكانٌ لهنّ فهو خلف ستر وحجب يصعب معه الحضور والمشاركة الوجدانية، ولا أدري -والنساء في أكثر ملابسهن ستراً وأشدّ حالاتهنّ طهراً وتوجهاً- ما الذي يخشاه من يضع صفوف جموعهن خلف الحواجز والموانع، والجموع سوف تنطلق بعد قليل من موقع العبادة

والطهر إلىٰ الأسواق والأعمال رجالاً ونساءً؟! أليس في ألفة نفوسهم للاجتماع الروحي المهذب في المسجد ألفة لنفوسهم في التعامل المهذب خارج المسجد؛ بدل أن تغيب صفوفهن نفسياً ومادياً داخل المسجد؟!

وكم هو عجيب أيضاً أن يصل الأمر في كثير من مساجد المسلمين إلىٰ ألّا يسمح للمرأة بحضور صلاة الجمعة وخطبتيها، ولا يُهيَّأُ لها موضعٌ مناسبٌ فيها، وكأنّ الخطاب والحضور والتذكير وعرض شؤون المسلمين لا يخصُّ المرأة في شيء، وكأنّها ليس لها في المجتمع دور ولا شأن. إنّ منع المرأة من حضور صلاة الجمعة والجماعة هو سوء فهم لرخصة عدم إلزام المرأة حضورَ جماعات الصلوات، وذلك أنّ طبيعة مهمتها في رعاية الأسرة لا يمكّنها من تنظيم وقت أدائها، فلا يمكن للأم أو مَن في موضعها تأجيل رضعة الصغير أو العناية به أو تركه دون رعاية أو انتظار عودته من مدرسته، وما إلىٰ ذلك، ولهذا لم تُلزم المرأة بالجماعات، خصوصاً في جماعات الليل والعتمة. أمّا إذا لم يكن من ذلك شيءٌ يشغلها ويحول بينها وبين حضور الجماعة، ولا سيّما صلاة الجمعة وخطابها، فالرجل والمرأة أعضاء في المجتمع، وهم معنيون به سواء بسواء، فالأمر أمر تيسير وإباحة، لا أمر منع وإعفاء، "فلا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله."(1)

---

(1) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٣٠٥، حديث رقم: ٨٥٨. انظر أيضاً:

- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٣٢٦، حديث رقم: ٤٤٢. "لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد".

الأمومة والعمل في نظام المجتمع المسلم المعاصر:

من أخطر ما ابتلي به المسلمون اليوم، في هزيمتهم الحضارية المادية أمام الغرب، متابعتهم للغرب في كل أمر "حذو القذّة بالقذّة" دون وعي بخصوصيتهم وخصوصيتنا، وبمقاصد شرعتهم وشرعتنا.

إنّ إخراج المرأة إلى العمل؛ بالشروط نفسها المطلوبة من الرجل، وبذات المتطلبات والترتيبات التي يتعامل بها الغرب مع المرأة، قد أدّى إلى تفكك الأسرة، وإرهاق المرأة، والتفريط في عرضها، والمتاجرة بها، وتعريضها لكل ألوان الاستغلال والانحراف.

إنّ المرأة ليست مثيلاً للرجل، فلكلٍّ منهما طبيعته وخصوصياته وحاجاته، وهما متكاملان وليسا متماثلين، ومعاملتهما على أنّهما متماثلان إجحافٌ بكلٍّ منهما، إجحاف بالرجل نفسياً وأبوياً في علاقته ودوره المحوري "القوامي" في حياة الأسرة وتوفير الأمن والرفاه لها، وإجحاف بالمرأة على وجه الخصوص في دور أمومتها المحوري في حياة الإنسان ونشأته، وفي تربية الطفل، وفي السهر على بيت الأسرة وراحتها وهناءتها.

لذلك كان وما يزال على المجتمع المسلم ومفكريه وقادته أن يسألوا أنفسهم عن طبيعة دور الرجل والمرأة في الشرعة والمجتمع المسلم المعاصر، وكيفية حماية خصوصياتهما وتحقيق مقاصد الشرعة الإسلامية، مع تحقيق الكفاءة، وتسخير طاقات المرأة والرجل على أفضل وجهٍ ممكن في خدمة المجتمع، بما يحقّق مقاصده بأسلوب متوازن، ويمكّنه من الإفادة من طاقاته ومواجهة تحدياته بأفضل أسلوب.

ولتحقيق هذا الأمر يجب دراسة سوق العمل والإعداد لـه وتنظيمه، وتسهيل الأولوية فيه على ضوء الحاجات والقدرات والأدوار التي يطبّقها ويؤديها مختلف أفراد المجتمع وفئاته، رجالاً ونساءً، والتي تنسجم مع غايات المجتمع وتحقّق لـه خصوصياته.

وفي حالة المرأة فإنّ دور الأمومة الحيوي يُعَدُّ الأساس المهم للمجتمع، وإنّ بقاءه واستمراره بالشكل الفعَّال هو من أهم الاعتبارات التي يجب أن ينظّم على أساسها سوق العمل في المجتمع المسلم. والمرأة في دور الأمومة تحتاج إلى الرعاية المادية لكي تؤدي دورها في خدمة الأسرة والسهر على راحتها، كما تحتاج إلى الرعاية المعنوية للحفاظ على جوهر الأمومة في الحفاظ على عفتها وكرامتها.

وهناك مجالات عديدة في المجتمع المسلم يجب إعطاء الأولوية فيها للمرأة، ومن أفضل نماذجها التعليم في مرحلة الروضة، وفي مرحلة التعليم الابتدائي؛ حيث تكون المرأة بطبعها أقدر على التعامل مع الطفل.

وانطلاقاً من طبيعة المرأة ودورها الحيوي والاجتماعي فإنّها حين تبلغ العشرين تكون قد انتهت أو قاربت على الانتهاء من إعدادها المهني بالحصول على شهادة الدبلوم أو البكالوريوس، وهي في هذه السن أكثر ما تكون استعداداً أيضاً لمزاولة دور الأمومة، وأكثر ما تكون قادرة -من الناحية الوراثية والطاقة الجسدية والنفسية- على إنجاب الأطفال الأصحاء، والقدرة على تربيتهم ورعايتهم نفسياً وبدنياً. ولذلك فمن المهم توفير فرص العمل المرن المناسب لانشغال المرأة بالأمومة في هذه الفترة التي تمتد إلى حوالي

obeikan.com

الأربعين من عمرها، حين يصبح أصغر أطفالها قادراً على الاعتماد على نفسه، ويكون قد تعدى الفترات الحرجة جسمياً ونفسياً.

وهذا يعني أن يرحَّبَ بهن في هذه السن في ميدان العمل، ويعطين الأولوية، وتقدَّر مزاياهن، بل وتحتسب لهن الأمومة خدمة كل عامين أو ثلاثة أعوامٍ بعامٍ خدمةٍ، وَفْقَ ما تُحتسَب به الخدمات والخبرات في ميزان التوظيف، خاصةً أنّ المرأة -بخبراتها من ناحية، وبطبيعة التغيّرات البيولوجية التي تلحق بها في حوالي سنّ الخامسة والأربعين؛ بسبب انقطاع الدورة الشهرية وانتهاء فترة القدرة على الحمل- تصبح أكثر صلابةً وإيجابية بسبب زيادة هرمونات الذكورة وتراجع هرمونات الأنوثة لديها، بعكس ما يحدث للرجل في مثل هذه السن حيث يميل بعدها إلى اللين والدعة ورقة العاطفة، لذلك فمن المناسب أن تعطى المرأة حق التقاعد في سن الخامسة والستين أو حتى السبعين من العمر، فليس سراً أنّ المرأة أطول عمراً، وهي أيضاً أمتن بناءً من الرجل في هذه السن المتأخرة.

إنّنا في ضوء التبعية الغربية، التي تميل إلى المتاجرة بالمرأة وبأنوثتها، وتقلّل من أهمية دور أمومتها، نسعى لنرهقها ونصرفها عن دور أمومتها في صدر شبابها وربيع عمرها، ثمّ نغلق الأبواب أمامها حين تنضج وتخلو من شواغل الأمومة؛ لتصبح عاطلةً وحماةً ومصدراً للمنازعات والمشكلات الأسرية.

ومن الناحية الأخرى، فإنّ تنظيمَ سوق العمل، بحيث يكون فيه قطاع أعمال النساء له استقلالية عن قطاع أعمال الرجال، أمرٌ ممكن، على شاكلة استقلالية قطاعات الأعمال المختلفة، فذلك في جوهره عملية تنظيمية يعين

عليها التكوين النفسي والقيمي للإنسان وللمجتمع المسلم. فمن المهم عدم خضوع المرأة في سوق العمل لسلطة الرجل الأجنبي المباشرة، بحيث لا يُسمح بنمو العلاقات الشخصية الخاصة الحميمة من ناحية، ولا يسمح للإغراءات الوظيفية والمادية أن تسخَّر بهدف التأثير أو الضغط على المرأة. فلو أنعمنا النظر في علاقات السلطة الرئاسية والمرؤوسية -حتى بين الرجال- لهالنا ما يمكن أن يكون لها من تأثيرات قد تدفع كثيراً من الرجال إلى الخضوع والنفاق وارتكاب المخالفات إرضاءً للرؤساء، وتلافياً وتجنباً لغضبهم وسلطتهم، وطلباً لنفعهم في المراكز والعلاوات والترقيات.

إن طبيعة الضعف البشري وطول المصاحبة بين الرجل الرئيس والمرأة المرؤوسة، ومعرفة نقاط الضعف والقوة فيما بينهما، وما يتعاور حياة الفرد من المصاعب وعلاقاته الأسرية من المتاعب، ولما في يد الرئيس من السلطات الإيجابية والسلبية؛ كل ذلك قد يجعل عِرْضَ المرأة أهمَّ ما يتطلع إليه الرئيس الرجل، وقد يكون، في حالات الضعف، هو أيسر ما تعطيه المرأة المرؤوسة للسيد الرئيس. وما تتكشف عنه الحياة الوظيفية الغربية اليوم من ممارسات التعديات الجنسية يجب أن يكون نذيراً كافياً لنا، ولا سيّما أنّ شريعتنا وقيمنا وخصوصياتها تجعل الآثارَ المترتبة عليها في كياننا -على الرغم من فداحتها عندهم- أعظمَ وأبشع أثراً ممّا هي لديهم.

إنّ علينا أن نهتم بالتخطيط الاجتماعي اهتمامنا بالتخطيط الاقتصادي، حتى لا ننتهي قبل أن نبدأ، ولأنّ حسن التخطيط الاجتماعي وفاعليته -حتى من الناحية المادية- ليس أمراً يسيراً فحسب؛ بل إنّ لـه مردوده الاقتصادي، وهو

يؤدي في كثير من الأحوال إلى حسن استخدام الموارد، وتحقيق كفاءة الإنتاج.

ثانياً: معالم الطريق في "سيناء" العصر

دور الأسرة:

اتضح لنا فيما سبق أن الطفل والعناية بتربيته، وتطوير منهج هذه التربية، وتنقية الثقافة والمفاهيم التي يرضع لبانا في سني صباه، لم تكن في بؤرة الاهتمام العلمي والتطوير العملي لدى أهل المعرفة والفكر والقرار في العالم الإسلامي. فكيف للأمة أن تكسب معركة تربيته وتنشئته إسلامياً وهي تعاني من تشوهات موروثها الثقافي، ومن سطحية ثقافة خاصتها وأحاديتها وغربتها في الزمان والمكان، مع قصور ثقافة العامة وانحطاطها، وهي في الوقت نفسه تعاني من هجمة الغزو الفكري الأجنبي والإعلام العالمي والغايات الاستعمارية ووسائلها القهريّة التي تستغل انبهارها الحضاري، وجهلها الإسلامي، وفسادها السياسي والاجتماعي؟

الأنظمة والمؤسسات: دورٌ تابعٌ:

من الواضح أنّ القطاع الإسلامي الإصلاحي في الأمة هو المعبّر عن ضميرها ووجدانها، فبيده مفاتيحُ محركات طاقاتها، ويملك القدرة على خطاب روح الأمة، وتقديم مشروع ناجح للإصلاح، وإعادة البناء، وإعادة التواصل مع عهد الرسالة، ومع رؤيتها الكونية الشمولية، وروحها الجهادية الإصلاحية.

هذا القطاع لا يمكنه الاعتماد على الأنظمة وصفواتها السياسية لإصلاح التربية والتعليم بشكل جذري، ووفق المنظور الإسلامي، لأنّ مصالح

الأنظمة -وبتأثير طبيعتها والقوى المؤثرة فيها- هو الإبقاءُ على الحال القائمة التي يتمتعون فيها بما في أيديهم من المصالح والامتيازات، ويحرصون على استبقائها باستجلاب رضى القوى العالمية الكبرى المتحكمة فيهم، وعدم التعرّض لمصالحهم ومكتنـزاتهم ومتعهم وأنظمتهم. وهذا لا يعني إهمالَ خطاب الأنظمة وقياداتها، والوقوفَ عن بذل الجهد في نصحها وكسب شيء من اقتناعها، والتعاونَ معها في حدود إمكاناتها، والسعيَ إلى التقليل من مقاومتها ومناوأتها للجهود المبذولة في سبيل الإصلاح.

والحديث نفسه يُقال عن الإعلام والدوائر الإعلامية، فإنّ نوعية الثقافة والمصالح التي تتحكم في الإعلام والمؤسسات التي تسيّره تقعد به عن التحمس لمشروع التربية الإسلامية وتحقيق أهدافها. ولكن تظل هناك مساحة واسعة يمكن للمفكرين والمثقفين المخلصين الإفادة منها في تمكين جهود الإصلاح الإسلامي الحضاري، والاستفادةِ من وسائل الإعلام والاتصال الإلكترونية التي تعطي للأفراد والمنظمات مجالاً واسعاً من القدرة على الاتصال الحرّ بالجمهور، مخترقة بذلك مختلف أنواع الحدود والحواجز.

وإذا لم يكن من الممكن تجنيد الأنظمة بشكل فعال -في ظل الظروف التي تحكمها- من أجل تفعيل مشروع الإصلاح الإسلامي، فضلاً عن أنّ دعاة الإصلاح التربوي لن يجدوا للأمـة "سيناء" قصيّةً يعزلون فيها جموعاً من صغار الأمـة وناشئتها؛ لكي ينشئوهم التنشئة السليمة التي يتطلعون إليها، كما فعل سيدنا موسى وأخوه هارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ في "سيناء" جزيرة العرب من قبل، وحيث إنّه لم يعد، في عالَم العولمة والاتصال الفضائي والإلكتروني

والنفاث الصاروخي، مكانٌ لأحلام حواجز الحماية الثقافية والجمركية، فإنّه لا بدّ للمشروع الإسلامي من مواجهة الواقع -بكل ما للآخر من تفوق مادي، ومن قدرات الغزو الثقافي الغربي- وجهاً لوجهٍ، ونوعاً لنوعٍ، وقدرةً لقدرةٍ، وثقافةً وحضارةً لثقافـةٍ وحضارةٍ، وأن يتم التغيير على الأرض، وفي المجتمع، وتحت أعين الأنظمة، ومناوأة قوى التخلّف التغريبي والتقليدي، الثقافية والفكرية فيها، على حد سواء.

والحلّ الذي يمكن أن يتحقّق في مثل هذه الظروف لا بدّ لـه من أن يستند إلى دافع ذاتي فطري فعّال، وهو الدافع الوحيد الذي يجعل الإنسان المسلم راغباً في الأداء، وقادراً عليه، وحاملاً "سيناءه" بين جوانحـه؛ أياً كان وضعه المادي والاجتماعي، فيعيد به تشكيل ذاته، وتربية أجياله، وتشكيل نفوسهم، وتزويدهم بالطاقة والقدرة الحضارية الإصلاحية الإسلامية التي يُنهضون بها أمتهم، ويقدمون بها نموذجهم وتحديات إصلاحاتهم للحضارة الإنسانية المعاصرة. فما هو ذلك الدافع الفطري؟ وما هو مفتاح تشغيل التغيـير في المجتمع؟؟

دافع الفطرة الأبوي مفتاح تشغيل التغيـير الاجتماعي:

إنّ طوق الإنقاذ، و"سيناء" عصر العولمة، ودافع المسلم الذاتي، ومفتاح التشغيل من أجل التغيير الإيجابي في الأمة؛ يجب أن ينبع من نفس المسلم ولا يعتمد على أحدٍ إلا على الله ومن ثَمَّ على نفسه ذاتها، دون أمر ولا إذن من النخب المسلوبة الإرادة، ولا من مصالحها المتعارضة. وهذا الطوق والمفتاح والـ"سيناء" إنّما يتمثّل في "الأسرة" محضن الطفل ووجدانه، ومصنع بنائه

النفسي الذي يقوم على دعائم الدافع الذاتي الفطري، دافعِ "الأبوة" أو "الأمومة" الذي يهدف دائماً إلى ما فيه مصلحة الطفل وحده دون سواه، وعلى أساس من المفاهيم الواضحة للآباء ذكوراً وإناثاً، واقتناعهم بما فيه تحقيق مصالح أبنائهم وفلذات أكبادهم.

ودافع الآباء الفطري لما فيه مصلحة الأبناء هو المفتاح الوحيد المتبقي في هذا العصر مُنْطَلَقاً فَعَّالاً للإصلاح الثقافي والتربوي الإسلامي. والأمر عندئذ يعتمد على المفكر والتربوي والمصلح المسلم في ذاته ليقوم بواجبه في إمداد الآباء بالثقافة والأدبيات التربوية العلمية الإسلامية السليمة، والوصول إلى تحقيق اقتناع هؤلاء الآباء والأمهات بما فيه مصلحة أبنائهم، وكيفية إعادة تشكيل بنائهم النفسي والوجداني على أسس إسلامية سليمة توفر لهم سعادة الدارين؛ إيماناً وقدرةً وكرامـةً.

وإذا شاءت المدرسة أن تؤدّي دوراً مهماً فعالاً في خدمة الأمة، وتطوير نوعية الأجيال وقدراتهم، فبإمكانها أن تقدّم برامج تربوية للآباء، وإعدادهم لأداء دورهم بالقدر المتطور الذي تسمح به ظروف المجتمع، وأن تجعل تثقيف الآباء وتوعيتهم وتزويدهم بالمفاهيم والقدرات اللازمة جزءاً لا يتجزأ من برنامج عمل المدرسة ودورها في المجتمع.

ويستطيع التعليم العالي أن يسهم في هذه المهمة من خلال برامج دراسية إجبارية لمنسوبيه من الشباب تُعِدُّهم لتكوينِ أسر إسلامية ناجحة، والقيام بدورهم في تربية أبنائهم وتوجيههم الوجهة الإسلامية الحضارية السليمة.

إنّ المدارس والجامعات الخاصة الإسلامية هي من المؤسسات القادرة على الإسهام في القيام بهذه المهمة؛ حيث تتضاءل العقبات في قدرتها على رسم البرامج التكميلية التي يجب أن تجعل لمهمة إعداد الآباء (طلاباً وطالبات) لإحسان تربية أبنائهم الأولويةَ الكبرى في خدمة مستقبل الأمة وترقية نوعيتها، ولا سيّما أنّ آباء الأطفال في هذه المدارس عادةً ما يكونون من المثقفين القادرين على القيام بهذه المهمة إذا أحسن توجيههم تربوياً من المنظور العلمي الإسلامي في شكل قراءات ومحاضرات وندوات وورش عمل، ويجب أن يُعَدَّ تفاعل الآباء معها شرطاً من شروط قبول الطالب في هذه المدارس.

دور الوالدين التربوي الوجداني:

إنّ فاعلية كل الأدوار في تربية الطفل والناشئة، في المدرسة والإعلام والمجتمع، إنما يستند إلى موقف الوالدين، فهما اللذان يمنحان كل القوى والمؤسسات الاجتماعية إمكانية الوصول إلى الطفل والتأثير فيه؛ بما يوفران لتلك القوى من المشروعية اللازمة في ضمير الطفل، إيجاباً أو سلباً، وذلك من خلال القيام بالدور المنوط بهم في الإشراف التربوي الفعال، وتهيئة أبنائهم للوجهة التي يرغبونها، أو بالسلبية والتخلي عن أدوارهم التربوية، وتسليم قيادة أبنائهم لهذه المؤسسات دون حسيب ولا رقيب.

فالأسرة بيدها القوة والمشروعية التي تحدّد نوع التأثير الذي يمكن أن تمارسه المؤسسات وبقية قوى المجتمع على الطفل، وعلى بنائه النفسي والوجداني، وعلى قدراته المعرفية. والأسرة بمنزلة النظّارة الملونة على عيني الطفل وبصيرته، يصبغ لونها ما يراه الطفل من الوجود والبيئة. ولا يصبح المهم

في الحقيقة وفي العمق ماذا يسمع الطفل أو يرى، ولكن المهم كيف يفهم الطفل؟ وكيف يعي ويدرك ما يسمع وما يرى؟ ولذلك يختلف الأطفال -فيما وراء قدراتهم الطبيعية- في كثير من توجهاتهم ونوعية معادنهم وسلوكهم، وهم يدرسون في مدرسة واحدة، وفي صحبة دراسية واحدة، وعلى منهج دراسي واحد، وعلى يد مدرس واحد. ويعود السبب في ذلك -في المكان الأول- إلى تأثير الأسرة والبيئة المنـزلية ونوعية الأصدقاء -الذين يجب أن يسهم الآباء في اختيارهم- على البناء النفسي للطفل وطاقاته وتوجهاته الوجدانية.

قصور التربية والتعليم في الأمة:

وإذا أدركنا أهمية الطفولة والتربية في إحداث التغييرات الجذرية المعرفية والوجدانية، فإنّ أول ما يخطر على الذهن هو المدرسة والتعليم، وقد يأتي ثانياً تأثير الإعلام، أمّا الأسرة فإنّها تأتي آخراً، ويكاد دورها يقتصر على مهمة التغذية وتوفير الحاجات والمتطلبات الماديـة للطفل من مأوى وغذاء وكساء.

وإذا قسنا ما يُصرف على المدارس والتعليم -على الرغم من ضآلته النسبية في بلدان العالم الإسلامي- وكذلك ما يُنفَق على الإعلام، مقارنة بما ينفق على دور الأسرة التربوي، وترقية هذا الدور وتثقيفه وترشيده وتزويده بالمفاهيم والوسائل اللازمـة للأداء التربوي الفعّال، وجدناه لا يكاد يذكر، إذا استثنينا بعض الحديث الإنشائي والوعظي عن أهمية دور الوالدين بصفتهما قدوة للصغار والناشئة، وينتهي الأمر عند ذلك الحد، فلا يقوى الآباء على تغيير معادنـهم، ولا يعلمـون كيف يمكنهم، بأساليب عملية، تحسين معادن أبنائهم وصوغها على غير شاكلتهم، على الرغم من حرصهم الفطري على

العمل بكل ما يطيقونه لمصلحة أبنائهم وترقية نوعيتهم.

والمؤسف أنّ تصورات الآباء لمستقبل أبنائهم، في ضوء ثقافتهم وخبراتهم وتجاربهم، متأثّرٌ بالتوجهات المادية الفردية الاستهلاكية المحضة للثقافة الغربية، والمرحلة التي تمرّ بها، وحاجاتها، والمقاصد والتصورات التي تحكمها، مضافاً إليها أمراض عصور تخلّفنا الثقافي. فليس لدى جمهرة الآباء عندنا إلا المزيد من تطلعات الأثرة والأنانية، والحرص على لقمة العيش والاستهلاك وتكديس الأموال ما سنحت الفرص ومكنت الأحوال. أمّا المجتمع، والنظام العام، والمصلحة العامة، والتضامن الاجتماعي، والإخاء الإسلامي والإنساني، والكرامة الإنسانية، وحقوق الاستخلاف، ومجتمع القانون والقيم والعدل والإحسان ولذة المعرفة والإبداع، فقد أمست قضايا سفسطية بديعية جوفاء المعاني في عالم النفاق والصراع والقهر والظلم والفساد والتبديد والاستبداد.

ولا غرابة في أن نجد المدارس ومؤسسات التعليم والإعلام لا تؤدّي في عالمنا المهمات المرجوة منها في تخريج أجيال الكرامة من المواطنين الأقوياء الأمناء؛ الذين يتمتعون بالقدرة والمبادرة والأداء المتقن المتميّز على مستوى العصر وتحدياته.

ولو نظرنا إلى مؤسسات التعليم العالي وإسهاماتها في إعداد الكوادر والخبرات التربوية لوجدناها فقيرةً محدودةً تقتصر على تخريج دفعات المدرسين الذين يفتقدون الوسائل والبرامج والأبحاث والطاقات الفعّالة اللازمة لهم في تعليمهم وتدريبهم. بل إنّ مهانة مكانة المعلّم وتدني مستوى معاشه والخدمات التعليمية المتاحة له تَصرف (الكوادر) المتميّزة عن هذه

المهنـة وعن الانخراط في سلكها، كما تؤثّر سلباً على ولاء الممارسين لها، وعلى الرغبة في إتقان أدائها.

ولو قارنا نسبة ما تستثمره الأمم الحية المتطورة من الموارد على التربية والتعليم إلى مجمل ميزانية مصاريفها وإنتاجها القومي؛ لأدركنا ضآلة ما تصرفه دول العالم الإسلامي في هذا المجال. بل إنّ مجمل نفقات التعليم إنّما تمثّل -عادةً- "بند" رواتب ضئيلة متدنية، تحط من كرامة المعلم، وتدمر ولاءه، وتقتل روح العطاء في نفسه، وتدفعه إلى ممارسات مريضة مرهقة لكي يستخلص ويستكمل بعض دخله من آباء التلاميذ في المحاباة والدروس الخاصة. أمّا ما يتبقى من الموارد المخصصة للتعليم فإنما ينفق على مرافق متهالكة لا تعرف يد التطوير إليها سبيلاً.

ولو نظرنا إلى المناهج ووسائلها التربوية، ومدى تدني وعيها بأهمية البناء النفسي والوجداني للطفل، وملاءمتها للمراحل والتحديات التي يمرّ بها الطفل وتواجهها الأمـة؛ لأدركنا السبب في سوء الأداء التربوي، وتردي الممارسات والمناهج التعليمية التي تقوم على الإرهاق والإرهاب والاستظهار، ويُحرم الطفلُ معها من النمو الوجداني والمعرفي والجسدي، ومن تنمية مهاراته بالمستوى الذي يوفره ويتطلبه العصر، وروح العصر، وتحدياته.

ولو نظرنا إلى الآباء -رجالاً ونساءً- وإلى نصيبهم من الثقافة والتثقيف التربوي لصدمنا بأمية تربوية تكاد تكون مطلقة حتى بين المثقفين منهم، وذلك بسبب فساد خبرتهم في الممارسات التربوية التي نشأوا عليها في الأسرة والمدرسة، وبسبب ضآلة الأدبيات العلمية التربوية الموجهة إلى الآباء، وهي

تكاد تقتصر على الجانب الفقهي القانوني، والجانب الوعظي التقليدي، والترجمات الأجنبية التي لا تتعلّق بعقائدهم وثقافتهم وبيئتهم، ولا تعينهم على بناء الشخصيّة المسلمة، وإتقان الأداء، ومواجهة تحديات العصر.[1]

---

(١) شهدت شخصياً حادثة تصور مدى تخلف بعض العلماء وتبعيته في إدراك دور المرأة والأم في بناء المجتمع والمشاركة الجادة في أدائه، وهو مثل يصور حالات كثيرة من قصور هذا الفكر وتبعيته في مواجهة الكثير من المتغيّرات، وإدراك أبعادها وسبل مواجهتها. فقد كنت أيام الطفولة أستمع إلى المذياع، الذي كان في ذلك الوقت شيئاً جديداً ومثيراً، وكان ذلك صباح الجمعة حين اعتدنا أن نستمع بعد الافتتاح بالقرآن الكريم إلى حديث الصباح الديني، الذي كان يلقيه أحد علماء مكة المشهورين، وكان حديثه في ذلك الصباح عن تعليم المرأة، فسمعت الوالدة رَحِمَهَاٱللَّهُ تقول: "هل تغيّر الدين؟" فسألتها عن سرّ هذا التساؤل، فقالت: "أليس الذي يتحدث هو العالم فلان؟" قلت: "بلى" فقالت: "إنّه هو الذي أفتى قبل ذلك بتحريم تعليم الفتيات الكتابة، لأن ذلك سيكون لكتابة خطابات العشق والغرام"، حتى إنها انصياعاً لفتواه ونصحه أخذت تضرب أصابع ابنتها الكبرى التي كانت قد تعلمت مبادئ الكتابة في الكتّاب في ذلك الوقت حتى تمنعها من الكتابة ومواصلة تعلّمها، ثمّ قالت: "كيف هو اليوم ينصح بتعليم الفتيات ويحض عليه؟" وتساءلَتْ بدهشة واستنكار وألَمٍ إن كان الدين قد تغيّر.

وهناك مثال آخر على العجز المنهجي في توظيف الشمولية والتحليلية بهدف إدراك المتغيّرات وتمكين الأمة من القدرة على التعامل مع التحديات، وهو قضية ما يُسمّى بالتصوير الشمسي، الذي أصرّ على تحريمه رجال الفتوى لأمدٍ طويل، وما يزال كثير منهم يصرون حتى اليوم على تحريمه. فمَن أباحه فمن منطلق أنّه ليس عملاً يقوم به الإنسان مضاهاة لخلق الله، ولكنّه حبس للظل! ولا أدري لماذا يبيح الإنسان لنفسه القيام بعمل يؤدي إلى صنع صورة من ظل الكائن الحي، فإن نقل الشيء نفسه ولكن بمهارة يده كان محرماً!

فإذا أدركنا أنّ صور الحاسوب الآن ليست حبساً للظل؛ أدركنا أنّ الفتوى تأخرت وما عادت تحلّ الإشكال في تمكين المسلم من استخدام وسائل العصر.

والجواب الصحيح -كما أراه- يكمن في استخدام المنهجية الشمولية التحليلية، لأنّنا لو نظرنا إلى الموضوع من ناحية الجوهر لأدركنا أنّ حكمة منع التصوير في العصور الماضية تكمن في محاربة الدينية الوثنية. أمّا بعد الثورة الصناعية العلمية التقنية واختراع التصوير الشمسي =

أهمية أدبيات الأبوَّة التربوية:

وأهم هذه الحلقات في سلسلة أسباب الإصلاح التي يجب أن يوجه المفكرون والمثقفون اهتمامهم إليها هي حلقة الأسرة والأبوة: آباءً وأمهاتٍ. ولهذا الأمر أسبابٌ عدّة:

أ- إنّ للأسرة أهمية قصوىٰ في تشكيل نفسية الطفل وعقليته وتكييف استعداداته؛ لأنّها المنشأ والمحضن والملاذ لنشأة الطفل: فعلىٰ أساس رؤيتها ومحيطها وتوجيهها -إيجاباً وسلباً- يُكوِّن الطفل طبيعةَ مفاهيمه ورؤيته.

ب- دافع الوالدين اللذين يحرصان بالدرجة الأولىٰ، وبدافع الفطرة، علىٰ تحقيق مصالح الأبناء، وترقية نوعية حياتهم ومستوىٰ أدائهم. فدور الوالدين والأسرة من أهم الأدوار التي تحدّد مدىٰ تأثير بقية الأدوار والمؤسسات التعليمية والتربوية لدىٰ الطفل، وهو الذي يوجه ويعدل مسارَ تأثير تلك المؤسسات وفاعليتها.

ت- إنّ المفكر والكاتب والمصلح قادرون علىٰ الحديث والخطاب إلىٰ الوالدين، وتكلفة ذلك في متناول اليد، ويعين عليه فطرة الآباء

= والصور الإلكترونية فقد غدت ذات غايات علمية تعليمية إعلامية تقنية، ولا تمت إلىٰ ما جاء من الأمر والنهي النبوي بشأنها إلا بمشابهة لغوية. فاللفظ الذي أطلق علىٰ الأهداف الدينية أطلق هو ذاته علىٰ الأهداف العلمية التعليمية التقنية، كما هو الحال في حالات أخرىٰ كثيرة؛كلفظ "السيارة" في القرآن الكريم الذي يعني قوافل نقل التجارة، ولكنّه اليوم يطلق علىٰ عربات النقل ذات الحركة الذاتية، فلا يجمع بين "سيارة الماضي" و "سيارة الحاضر" إلا اللفظ وعموم معنىٰ الحركة والنقل.

والأمهات في السعي لما يظنون أنّ فيه مصلحة أبنائهم، وبذل الجهد للحصول عليه، على عكس بقية الأطراف والمؤسسات التي لها مصالحها وتوجهاتها الخاصة؛ فهي تحرص على بقاء الأمر الواقع واستقراره، وأيّ تغيير إنّما يجب أن يتم في إطار الحفاظ على الوضع القائم؛ لصيانته وعدم الإخلال بتوازناته المعقدة، وبمصالح المتنفذين في المجتمع، وإنّ أيّ تغيير من قِبَلِ المؤسسات إنّما يتمُّ للحفاظ على هذه المؤسسات وعلى الأوضاع القائمة، وهي على أفضل الوجوه تستجيب لمطالب التغييرات الأساسية من جمهور الأمة، ولكنّها بكل تأكيد ليست هي الجهات التي تبدأ بالتغيير أو تبادر به وتفجِّر طاقاته. لذلك يجب أن يهتم المفكرون والمصلحون بالأسرة من قبل المفكرين والمصلحين، وبدورها التربوي، وإنتاج الأدبيات اللازمة المقْنِعة والعملية لتوعية الآباء والأمهات، وتعليمهم كيف يكونون قادرين على أداء دورهم التربوي على أسس علمية صحيحة مجرَّبة، وعلى قواعد الثوابت القيمية والثقافية والوجدانية الإسلامية السليمة.

يجب النظر إلى الأسرة والأبوَّة والأمومة على أنّها "سيناء" الأمة والعصر؛ إذ إن المفكرين والمربين من رسل الإصلاح الحضاري الإسلامي، يستطيعون -بالجدّ والإخلاص المبنيّين على العلم والدراية- أن يخاطبوا الآباء والأمهات؛ لكونهم أهم الأطراف المعنية بتربية الطفل، مباشرة، ودون حواجز، وبأقل التكاليف.

وفي حياة جيلنا نماذج وصور كثيرة توضِّح كيف أمكن للآباء والأمهات أن يتخطوا بأبنائهم تلك الحواجز، وأن يقفزوا بهم قفزات حضارية واسعة في مدىٰ جيل واحد؛ لأنّهم تعرضوا لمفاهيم وتصوراتٍ أقنعتهم بقيمة التغيير المطلوب، وقُدّمت لهم المعلومات والخبرات المطلوبة.

وباقتناع الآباء والأمهات يتصاعد التأثير والضغط العملي علىٰ مختلف المؤسسات الاجتماعية التربوية والتعليمية، لتحسين مستوىٰ أدائها وتجاوبها مع كثير من تطلعاتهم، ممّا يسهم في تحسين أداء هذه المؤسسات في تربية الأجيال.

والحب والحنان والرعاية والأمن شروط أساسية لنجاح الجهد العلمي التربوي واستخدام طاقة الحب في التوجيه الإيجابي للطفل. فحبُّ الوالدين وحنانهما يولّدان مشاعر الحبِّ والتعلّق والتطلّع لدىٰ الطفل نحو والديه، وكما أن علاقة الحب من قِبَلِ الوالدين تنتج العنايةَ والرعايةَ التي يمنحانها للطفل، فإنّ علاقة الحب من قِبَلِ الطفل لوالديه تولّد لديه الرغبة في الاستجابة لتوجيهاتهما وخشية إغضابهما. وطاقة الحبِّ هذه بشقيها، الإيجابي: وهو الرغبة في كسب حب الوالدين، والسلبي: وهو الخشية أو الخوف الإيجابي من خسران حبهما وثقتهما وإعجابهما به، تدفعه إلىٰ الاستجابة والاجتهاد لإرضائهما، وبذل الجهد وتوليد الطاقة ليكون عند حسن ظنهما.

ولذلك يجب أن نبثَّ الوعي لدىٰ الأزواج، وأن نهيّئهم لفهم أدوارهم الإيجابية، وبناء علاقتهم علىٰ التواد والتراحم فيما بينهم أولاً، إذا ما أرادوا لهذه الصفات أن تكون من صفات أبنائهم، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والبيت

المفكك المهدم المبني على الازدراء والتنازع والتربص والكراهية هو محضن لا يُؤْمَلُ منه أن يحسن تربية صغاره، وأن يوفر لهم البيئـة التي تنمّي في نفوسهم ووجدانهم معاني الخير والبذل والمبادرة والإبداع. بل إنّ مثل هذه البيئـة هي المرتع الخصب للكراهية والأحقاد والشر والفساد الذي يسوق إلى الانحراف والجريمة والحقد على المجتمع.

كما يجب أن تكون هذه التوعية وهذا الاهتمام بأدبيات بناء الأسرة جزءاً مهماً من جهود المفكرين والإصلاحيين، وفي برامج التربية والتوعية والتعليم في الأمة؛ بحيث لا تكون هناك أمّية بقواعد علاقات الأسرة ومسؤولياتها وفهمها والاقتناع بها على أسس علمية. ومن ذلك تقديم برامج دراسية تتعلق بها، ابتداءً من مناهج المدارس الثانوية، مع تقديم مساقات جامعية خاصة متعلّقة بتكوين الأسرة وعلاقاتها، إعداداً للشباب لحياة أسرية تربوية ناجحة، تعتمد على الأدبيات العلمية التي ينتجها المفكرون والمتخصصون ومراكز البحث العلمي.

وبالطبع فإنّ عواطف الحبِّ وحدها، وبذل العناية بالطفل دون معرفة للسنن النفسية والاجتماعية على أسس علمية مدروسة، لا يضمن حسن التربية والنجاح فيها، بل إنّ الحبَّ الجاهل قد يؤذي أطرافه أشد الضرر إذا أدّى إلى التدليل المفرط الذي يولّد العجز والأنانية، وما يترتب عليهما من تشويه في قدرات الناشئ ومشاعره ومعاناته التي تدفعه في نهاية المطاف إلى التمرد والفساد والجريمة.

فاعلية المعرفة التربوية: تجربة أُسَريّة:

لعل من المفيد أن أورد مثالاً لدرس تربوي خبرته شخصياً يوضِّح كيف أنّ المربي الذي يسعىٰ إلىٰ أن يتحلّىٰ أبناؤه بالصفات الحميدة يجد في الأساليب التربوية عوناً مهماً لـه في تحقيق أهدافه، وتجنيب صغاره كثيراً من الأخطاء وسيِّء العادات. ومن دون الفهم والتواصل التربوي لن تؤدي القدوة وحدها الأثر المطلوب، فإنّ كثيراً ممّن هم في ذاتهم قدوة في سلوكهم وطبائع نفوسهم يكونون غير متواصلين تربوياً مع أبنائهم، مما يفسّر انحراف كثيرٍ من أبناء هؤلاء الآباء الذين لم يشفع لهم صلاحهم في حسن تربية أبنائهم وسلامة توجهاتهم.

أذكر مشهداً بين الوالدة رَحِمَهَاٱللَّهُ وأخي الصغير حين دخل البيت مرةً وهو يتلعثم بالانفعال، لأنّه لم يجد الكلمات المناسبة ليعبّر عن أحاسيس فرحته بما تحمله يداه الصغيرتان. فقد كان يحمل "محمصة" مزركشة المقبض، من تلك التي يُحمّص بها البنّ لإعداد القهوة العربية، وقد وجدها ملقاة في عرض الطريق الضيق أمام الدار، ولعلها ممّا سقط من متاع بعض المارة من عرب الجزيرة الوافدين إلىٰ مكة، الذين يكثر مرورهم في ذلك الطريق. واستقبلت الأم الطفلَ وأنا أنظر إليها مترقباً ما عساها أن تفعل بهذه "اللقية"، ولدهشتي رأيتها تحمل الطفل في رفق علىٰ ذراعها ومعه "المحمصة" في يده، وترفع يده ليلقيَ بها إلىٰ الطريق ثانيةً وهي توضِّح لـه أنّ هذه المحمصة ليست لنا فلا نأخذها، ومن الواضح أنّ قصدها كان هو ألا يتعوّد ابنها أن يأتي إلىٰ الدار بما ليس لنا.

حين أمعنت النظر في هذا الدرس أدركت أنّ مثل ذلك الطفل لن يمدّ يده بعد ذلك إلىٰ ما ليس له، وسوف يستقر في قرارة نفسه -وبلغة تربوية

أولىٰ- عدم التطلّع إلىٰ مال سواه، ولو كان ملقىً علىٰ قارعـة الطريق. وكم من طفل تحوّل إلىٰ سارق حين مدّ يده الصغيرة إلىٰ مال الآخرين وعاد بأسلابه الوضيعة إلىٰ الدار؛ حيث يجد الفرحة بغنيمته مع تصديق جميع أكاذيبه؛ فتأنسَ نفسُه، ويتعوّد -ببراءة- عادةَ السرقة والكذب، بسبب جهل الأهل وغفلتهم، وعدم متابعتهم لسلوك أبنائهم ونشاطاتهم.

ولم يخفَ عن الابن أنّ جوّ المحبة والوفاق والرعاية والأمن في داره كان خلف الاستجابة التي مكنت الوالدين من أن يؤثّرا -بالحسنىٰ- في نفوس صغار الدار، الذين كانوا يأنسون إلىٰ جوار والديهم ومراتع دارهم، بعيداً عن صحبة الأشرار ونفوذ جلساء السوء، وأمكنهم أن يعبُروا بأبنائهم في جيل واحد قروناً حضارية تدل علىٰ ما للأساليب التربوية من قدرة علىٰ الإصلاح والتغيير.

ولأنّني أعلم تربوياً أنّ الطفل يهمه دائماً أن يعلم رأي والديه فيما يعنُّ لـه من أفكار، وما يثور لديه من تساؤلات، وما يواجهه من مواقف، فإنّني كنت أحرص -ما استطعت- علىٰ أن أكون مع الأطفال وهم يشاهدون برامج التلفزيون. وكان أهم دور أقوم به حين ألحظ رسالة سلبية يبثّها مشهدٌ من هذه البرامج أن أقوم بتعليق عابر قصير محدّد، وبأسلوبٍ مناسبٍ، ليكشف زيف الرسالة، ويردّ عليها، ويصحّح مغالطاتها، دون أن يحرم الأطفال من متعة المتابعة والاستمتاع بحبكة القصة أو البرنامج. وإذا كان لابدّ من مزيدٍ من التعقيب والمناقشة فيتم ذلك بعد البرنامج، وبأسلوبِ حوارٍ مفتوحٍ لمناقشةِ أهم ما فيه بهدف التوضيح والتصحيح، وتعريف الطفل بوجهة نظر والديه، وترك الأمر يدور في رأس الطفل حتىٰ يتسرّب إلىٰ أعماقه بهدوء وطمأنينة.

obeikan.com

وقد كان لذلك الأسلوب من خلال تجربتي أثرٌ فعَّـالٌ في مقاومة كثير من الآثار السلبية للبرامج التلفزيونية. وعلى المربين أن يزوّدوا الآباء بكثير من النصائح التربوية لحسن التعامل العملي الفعَّـال مع ما يواجهونه من مواقف تربوية في حياة الطفل، ومع ما يجدونه من مواقف وتحدياتٍ لن يكون آخرها تحديات البثّ الإلكتروني (الإنترنت) وبرامج (الكمبيوتر).

إنّ أهم عناصر المشروع التربوي الذي يدعو إليه هذا الكتاب هو تكريس جزء مهم من جهود المفكرين والتربويين والإصلاحيين الإسلاميين، وتوفير الدعم المعنوي للدراسات العلمية التي توجه الخطاب العلمي الإسلامي المقنع المؤثر إلى الآباء والأمهات، وتثقيفهم تربوياً، وتعريفهم وجوهَ التشوه الثقافي والقصور التربوي، وأثر ذلك في بناء أبنائهم وأمتهم، دينياً ونفسياً ومعرفياً وحضارياً، وتبصيرهم بالمعلومات والطرق والوسائل التي تمكّنهم من أداء أدوارهم في تربية أبنائهم، ورعاية نموهم، واستقامة بنائهم النفسي والوجداني والمعرفي، حيث تنطلق طاقات الحبِّ والعدل والبذل والصبر الذي تمتلئ به جوانح الوالدين الفطريـة نحو أبنائهم.

ومن العار أن نجد مكتبات الأمم تمتلئ بالمئات والألوف من الكتب والأبحاث العلمية التربوية التي تبصِّر الآباء والأمهات بالوسائل الثقافية التربوية التي تعينهم على القيام بأدوارهم في تربية الأبناء، فيما نجد المكتبة الإسلامية في شؤون الأسرة والتربية تكاد تكون خِلْواً من الكتب والأبحاث العلمية الجادة، وأنّ جُلَّ ما يتصدرها، من النـزر اليسير من الكتب، لا يعدو أن يكون مكرورَ خطاباتٍ وعظيةٍ سلطويةٍ، أو كتبَ قانونياتٍ وفقهياتٍ تتعلّق

بأحكام عقود الزواج وأحكام الطلاق، والوصاية علىٰ الأطفال، وتقسيم التركات، وجُلُّها أمور لا تتعلّق بجوهر التربية والعلاقات الإنسانية، ولا تقدِّم علماً سننياً، ولا دراية علمية ثقافية تربوية، وهي أمور لا حاجة للعامة إلىٰ أن يتعلموا تفاصيلها الدقيقة، لأنّ المأذون والقاضي والحاكم سوف يتولون تفاصيلها عند الحاجة إليها، ويقومون -حينذاك- بإجراءاتها، وإصدار الأحكام اللازمة فيها.

إنّ المعالجات والثقافة المطلوبة التي يجب إنتاجها من أجل ترقية شؤون الأسرة والتربية والتعليم وتطويرها يجب أن تستمرّ في سيلٍ لا ينقطع من دراساتٍ وأبحاث وتجارب، ومتابعاتٍ للتحديات، ولمتغيّرات العلاقات والظروف والإمكانات، ولمستجدات المعارف والمعلومات، بما في ذلك الدراسات النفسية، ودراسات الدماغ البشري، والجينات، وسواها من مجالات المعرفة المتفجرة التي تمتد إلىٰ آفاق واسعة جديدة في معرفة أسرار فطرة النفوس والكائنات.

المعلم رديف الأسرة:

وإذا كان الدافع الفطري لدىٰ الآباء في الحرص علىٰ مصالح أبنائهم وتوفير ما فيه مصلحتهم هو الأساس الأول المكين، الذي يجب أن يستند إليه كل جهد جادّ لإصلاح معدن الإنسان المسلم، فإنّ المعلم صاحب دورٍ مهم في ذلك أيضاً؛ لكونه الداعمَ والرديفَ الميداني الأول لدور الأسرة في التربية؛ ولأنّه العنصر الذي يَكِل إليه المجتمع أمر تعليم الصغار، ورعايتهم، وتوجيههم، وتنمية قدرات الناشئة، وصقل مواهبهم.

ولثقافة المعلم ومناهجه التربوية والوسائل المتاحة لـديه أهمية كبرى في تنمية الطفل معرفياً ووجدانياً. وكلما توافقت مفاهيم الآباء والمعلمين، وتناسقت جهودهم، كانت الجهود أكثر فاعلية، والنتائج أكثر إيجابية.

وجُلُّ الأخطاء وأوجه القصور في أداء المعلمين والمدارس وخطط التربية والتعليم في كثير من البلاد "النامية" ليس ناتجاً بالضرورة من سوء تدبيرٍ أو سوء قصد، بقدر ما هو ناجم عن قصورٍ في الأداء، ومتابعةٍ تغريبيةٍ عمياء في بناء الخطط والمساقات والبرامج والنشاطات التعليمية.

إنّ الاهتمام بقضايا المعلم وإعداده ورعايته، وكذلك الاهتمام بقضايا التعليم العام ومناهجه ووسائله ووجوه القصور فيه، يضع هذه القضية أمام الأمة، ويعين كثيراً على تصحيح منظور الجهات المسؤولة عن التربية والتعليم التي لن تجد -في كثير من الحالات- غضاضةً في إصلاح كثير منها، وفي الاستثمار من خلالها في الأجيال القادمة، بأسلوب تربوي متوازن، ولا سيما إذا لمستْ الأمةُ آثار هذه الإصلاحات والمناهج في تنمية القدرات الناشئة وتحسين أدائها.

إنّ المعلّم مثل الوالد في حرصه على مصلحة الطفل، وعلى النجاح في مهمته، ولن يستطيع أن يؤدي دوره إلا إذا تـمّت توعيته، وتحسّنت ظروفه المعيشية ومكانته الاجتماعية، ودُعِمَ دوره التربوي بالأبحاث التربوية العلمية، وبالكتب والمواد المدرسية المنهجية الفعالة المتطورة. والمفكرون، والمؤسسات التربوية الرسمية وغير الرسمية، وجهود المصلحين، يمكنها أيضاً أن تسهم بنصيب وافر في دعم المعلم وتطوير فكره ووسائله التربوية.

openelkan.com

خطاب القداسة الديني: العلاقة بين المعرفي والوجداني:

إن المعلومات لن تنتهي بدفقها وتجددها، ولن يتوقف طلب المزيد منها، وإعادة النظر والتطوير فيها، ما دامت الحياة تجري في عروق البشر. فالمعرفة تُطلب وتتجدد من المهد إلى اللحد. أمّا الجوانب الوجدانية النفسية التربوية فلها أوانها ومداها من مراحل العمر والنمو الإنساني الذي لا تتعداه، ولذلك يجب أن يكون الوجداني النفسي هو الأساس الذي يُبنى عليه نوع المعرفي وأسلوب تعليمه، حتى في مجال تعليم العقيدة والقيم والأخلاق.

إن كل ما يقدَّم إلى الطفل من علوم ومعارف -حتى في مجال تعليم القرآن الكريم- يجب ملاحظة آثاره على تكوين العقلية والبناء النفسي والوجداني للطفل، وفي كل مرحلة من مراحل طفولته، إذ إنه لكل مقام مقال".

ولعل من أهم المجالات التي يجب أن نوضح فيها علاقة المعرفي بالوجداني، وملاحظة التأثير المتبادل بينهما، هو مجال التعليم الديني -بما في ذلك تعليم القرآن الكريم للطفل- حيث درجت المناهج التقليدية على تعليم القرآن الكريم بشكل عفوي عشوائي، وهم يبدؤون بتعليم الصغير منذ نعومة أظفاره قراءة الجزء الثلاثين من القرآن الكريم، واستظهاره، ولعل ذلك بسبب الظن أنّ قصارَ السور أيسرُ حفظاً من طوال السور، ولأن جُلَّ موضوع تلك السور المكية هو الغيب والعقيدة،(١) وهذا المنهج -في رأينا- يجب تصحيحه

---

(١) يبلغ عدد سور الجزء الثلاثين سبعاً وثلاثين سورة، كلها مكي إلا ثلاث سور، هي: سورة النصر، والزلزلة، والبيّنة، والآيات الثلاث الأولى من سورة الماعون. انظر:

- مخلوف، حسنين. **صفوة البيان لمعاني القرآن**، الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، ط٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

وتقديم القرآن الكريم للطفل على أسس منهجية علمية تربوية.

فالجزء الثلاثون هو خطاب إلهي، يغلب عليه خطاب الكفار الجبابرة والجاحدين المنكرين، وما يتوعدهم من الهوان والعذاب وسوء المصير، بكل ما تحمله اللغة من قوة وبلاغة في التهديد والوعيد، داعياً هؤلاء المستكبرين إلى إدراك حقيقة حالهم وسوء مآلهم. وهو خطاب يناسب حال البالغين المستكبرين لكي يحمِّلهم مسؤولياتهم، ويبصرهم بعواقب أمرهم، ويعيدهم إلى صوابهم ورشدهم. ولن يكون من آثار هذا الخطاب للبالغين أن يحيلهم إلى رجال جبناء، ولن يقوِّض بناء نفوسهم ويقضي على مكامن القوة والشجاعة فيهم، لكنه يبصرهم ويرشدهم ويلزمهم الحجة، ويدعوهم لإمعان النظر، والتفكر والتدبر، وحساب العواقب، وترشيد الخيار.

ولكنّ الخطاب ذاته، إذا وُجِّهَ إلى الطفل الصغير أخضر العود صغير السن، لن يكون له الأثر نفسه، لأنّ الصغير ليس في حاجة إلى التهديد والوعيد. فلو أخطأنا وخاطبناه بما خاطب به القرآن الكريم الجاحدين المنكرين فإنّ الأثر النفسي والوجداني -في حالة الصغير البريء- مختلف ومدمر لبنائه النفسي، لأنّه يشيع فيه الخوف والرعب، ويميت فيه القوة والشجاعة، ويجعل الحياة أمامه مفازة يخشاها، ويقف منها موقفاً سلبياً، فيتحرك لا بروح الاستخلاف، ولكن بروح الخوف وغريزة البقاء، ولا يمكن أن تنمو في نفس الخائف المروع ملكة إبداع ولا قدرة عطاء، ولا ينتظر أن تُبنى علاقته بالله وبالحياة وباليوم الآخر على مشاعر الحب والأشواق والطاقات الإيجابية.

ولعل ذلك يفسّر -إلى حدّ كبير- سلبية النفس المسلمة في عصور الانحطاط، حيث ضعفت فيها محبة الله، وتوارت جدية الحياة، ولا ترى مثل هذه النفوس في صورة الدار الآخرة إلا أنها سعير جهنم، برغم أنّ مصير المسلم -يرحمة الله- إلى الجنة، "وإن زنى وإن سرق؛"[1] لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحاسب الناس على كلّيات أعمالهم، وليس على ما يرتكبون من الأخطاء فقط، فيؤتى بحسناتهم وسيئاتهم، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود:١١٤]. وجُلُّ الناس يَغلبُ الخيرُ على الشر في حياتهم ونفوسهم، فلا غرابة إن سيطرت مشاعر الخوف والوجل في عصور التخلّف على أكثر نفوس المسلمين في كل شيء؛ لأنّهم لم يدركوا آثار الخطاب التربوي الخاطئ الموجه إلى المسلم، ولا سيّما الطفلُ، والمبني على التخويف والإرهاب والعقاب، وليس على الحبِّ والمودة والاحترام والثقة والتشجيع والتبصير وتحمّل المسؤوليات والأمانات.

وعلى المربي -على أساسٍ من هدي الخطاب النبوي للطفولة، والبحث العلمي التربوي المبني على أساس الرؤية القرآنية وقيمها ومقاصدها- أن يقدِّم للطفل الاختيارات القرآنية التي تناسب طبيعته في المراحل النفسية التي يمرّ بها، بما يقربه من الله، وينمّي في نفسه مشاعر الحبِّ الإيجابية، ويحبب إليه

---

(١) روى أحمد في مسنده، أنّ أبا الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: "قال رسول الله ﷺ: من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له دخل الجنة. قال: قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء". انظر:

- الشيباني. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٤٥، ص٤٨٣، حديث رقم: ٢٧٤٩١.

قيم الإسلام وغاياته، حتىٰ إذا بلغ مرحلة التمييز شجعناه -عن طريق الاختيارات القرآنية المناسبة- علىٰ تحرِّي الخير والصواب، والبُعد عن الشر والأذىٰ، وغرسنا في نفسه المبادئ والقيم، وفي الوقت نفسه نزيل من ذاته الغضة الخوفَ والفزع حين الوقوع في أخطائه الصغيرة، كبعض الكذب، وإيذاء الأخدان، ومثالب حبِّ الاستطلاع؛ وبذلك نفتح أمامه -بالاختيارات القرآنية المناسبة- سبلَ مراجعة النفس، والبُعد عن الخطأ، وتهذيب الذات بمعاني التوبة والغفران والرحمة الإلهية، فلا يحسّ بالإحباط الذي يقود إلىٰ الهروب النفسي والاستسلام للأخطاء والانسياق فيها.

فإذا بلغ الطفل مبلغ الرجال وُضِع -بالاختيارات القرآنية المناسبة- أمام مسؤولياته، وبُصِّر بعواقب أفعاله، كما وُضِع رجال العرب الأحرار الأقوياء من أصحاب رسول الله -وقد آمنوا رجالاً- أمام مسؤولياتهم، وبُصِّروا بعواقب أفعالهم، فحملوا مسؤولياتهم الجسام بقوة معادن نفوسهم الشجاعة القوية غير الهيابة، والصفاء الذي نُشِّئوا عليه في نعومة أظفارهم.

إنّ الإصلاح الثقافي التربوي يجب أن يمتد إلىٰ كل جوانب التكوين المعرفي والنفسي والوجداني للطفل والناشئة، وأن يوظف لخدمة التكوين السليم لعقلية الطفل ونفسيته. والجانب الديني والعقدي هو من أهم هذه المكونات، ويجب أن يكون الخطاب النبوي الودود، علىٰ أساس من التدبر والفهم العلمي السنني، هو الدليل والأساس في بناء المناهج التربوية المعرفية والنفسية والوجدانية للطفولة.

علينا أن ندرك علاقة المعرفي بالوجداني والنفسي فيما نعلِّم للطفل حتى حين نعلّمه القرآن الكريم الذي لا أظن أننا اتّبعنا في تعليمه المنهج التربوي السليم في اختيار ما يناسب كل مرحلة من مراحل نمو الطفل وبنائه النفسي، فنبدأ بمحبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومحبة دينه وأمته والتعلق بربه وعقيدته، وحسن فهمها، ونتدرج به إلى المراحل التي يصلب فيها عوده وينضج، ليدرك مسؤولياته وعواقب أفعاله تجاه نفسه وأمته؛ فيخاطَب خطاب المسؤولية والتبصير بها، ويرشَد -في نصحٍ وحدبٍ- إلى ما يترتب على أفعاله من العواقب والمسؤوليات.

وينطبق هذا المفهوم التربوي، الذي يراعي الآثار الوجدانية، على كل ما يقدّم للطفل من فكر وثقافة ومعارف، بما يناسب كل مرحلة من مراحل نموه، لا فرق بين فئة وأخرى، وصفوة وعامة، فالجميع إخوة، وهم جند الأمة المسلمة القوية الكريمة.

إنّ على فئات الأمة كافة؛ مفكرينَ ومصلحينَ، آباءً وأمهاتٍ، مربين ومعلّمين، أفراداً ومؤسساتٍ، أن يولوا شؤون التربية والتعليم الأولويةَ والأهميةَ والجهدَ المطلوب لهذا المجال المهم، وأن يعيدوا بناء قواعد كيان الأمة، وتفجير طاقتها في طفولة أبنائها، وتنمية مواردها البشرية على أسس معرفية ووجدانية إسلامية علمية سليمة.

وحتى يتحوّل القولُ إلى عمل، والفكرُ إلى فعل، يجب البدء بوضع خطط عمل جادة شاملة، تتعاون فيها كل الأيدي المخلصة؛ لاستنبات جيل الإيمان والقدرة والعزة والإصلاح.